د. محمد عبد اللطيف هريدي

الحروب العثمانية الفارسية

وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م

دار الصحـــوة للنشـــر والتوزيـــع ـــ القاهـــرة
٧ شـــارع الســـراى بالمنيـــل . ت : ٩٨٧٩٢٤
ش جمال عبدالناصر - حدائق حلوان - مدينة الهدى . ت : ٦٨٨٠٧١

الحروب العثمانية الفارسية

وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمـــة

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ صدق الله العظيم (الأنفال ، ٤٦)

لقد قيض الله للدولة العثمانية أن تحمل لواء الجهاد الإسلامى فى شرق أوروبا إبان القرن السابع الهجرى ، ولم يكد القرن العاشر أن ينتصف حتى دانت كل أمصار أوروبا الشرقية لهذه الدولة ، وأصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية بعد أن كان مركزاً للحضارة الهيلينية وارتفع المد الإسلامى فى ظل هذه الدولة ، وبلغ حداً لم يبلغه من قبل فى أى حقبة من أحقاب التاريخ الإسلامى ، وحقق الأتراك العثمانيون آمال الفتح التى استشهد فى سبيل تحقيقها المسلمون الأوائل ، وعلى رأسهم الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى (رضى الله عنه) وكادت الأندلس أن تعود إسلامية لولا أن أطلت الفتنة الفارسية برأسها لتقضى على حكم المسلمين فى أوروبا ، ولتحيل المد الإسلامي إلى جَزْر ، فينحسر الإسلام عن أوروبا برمتها ، ولم يبق من المسلمين إلا بقايا تذكارية لذلك العهد فى بلاد البلقان مثل : يوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا .

ولعل هذه الوريقات تكشف لنا جوانب هذه الفتنة بأبعادها الحقيقية ، وتبين لنا كيف كان مشعلوها الفرس – أي الفتنة – يحسنون إختيار الوقت المناسب للاشعال ، ولعل ما كان بالأمس يصبح لنا اليوم عبرة ودرساً .

والله ولى التوفيق

القاهرة

فى ١٤ محرم ١٤٠٨هـ

الموافق ١٩٨٧/٩/٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول
فتن الباطنية بالأناضول قبل قيام الدولة العثمانية

اتخذت القبائل التركية من سهوب آسيا الوسطى موطناً لها ، وكانت هذه السهوب تمتد من منشوريا فى الشمال الشرق وتسير جنوبا بميل إلى الغرب حتى بلاد ما وراء النهر والهضبة الإيرانية ، ثم تمر شمالا إلى بحر قزوين والبحر الأسود ، ولم تَحُلْ الحياة الرعوية التى عاشتها تلك القبائل دون أن تكون لها دول بين الحين والآخر وأن تقيم علاقات سياسية مع جيرانها فى الصين والهند والهضبة الإيرانية . وكانت هذه القبائل تدين – إلى جانب دياناتها المحلية – ببعض الديانات القديمة المنتشرة آنذاك فى وسط آسيا مثل المانوية والشمانية والبوذية والزرادشتية .. الخ

وكان أول احتكاك مباشر للأتراك بالعالم الإسلامى فى أواخر القرن الأول الهجرى أثناء فتح قتيبة بن مسلم لهذه الأمصار ورغم خضوع هذه الأمصار للحكم الإسلامى فى أواخر القرن الثانى الهجرى لم ينتشر الإسلام بينهم آنذاك بشكل واسع ، وإنما كان انتشاره تدريجيا خاصة بين القبائل غير الخاضعة للحكم الإسلامى ، ولذا تكاد المصادر تجمع على أن الأتراك اعتنقوا الإسلام طواعية وليس نتيجة لضغط من أى نوع ، ثم زادت حركة انتشار الإسلام بينهم بزيادة النشاط التجارى وبدخولهم فى خدمة الخلفاء الأمويين ثم العباسيين[1] . ولم يكد القرن

الخامس الهجرى أن ينتصف حتى أصبح الاتراك المسلمون كثرة فيما وراء النهر وخراسان ثم قامت لهم دول إسلامية ترعى السنية ، وتناهض الشيعية ، وكانت الدولتان الغزنوية والسلجوقية من أهم هذه الدول لكن مناهضة الأتراك السنيين للتشيع بدأت قبل ذلك حين كانت الدولة العباسية تستعين من حين لآخر بالجند الأتراك لقمع فتن الباطنية والعلويين .

ولاشك أن العشائر التركية حديثة العهد بالإسلام كانت تتأثر بما هو سائد حولها من معتقدات ناهيك عن تلك التى تتفق وتراثها الدينى القديم ، ومن المعروف أن منطقتى ما وراء النهر والهضبة الإيرانية كانتا تموجان بالبدع والتيارات المارقة عن الإسلام ، وقد ساعد على اختلاط الحابل بالنابل فى هذه المنطقة عدة عوامل من أهمها انتشار الشيعة وخاصة فى منطقة الديلم التى كانت مكمن المجوس ومعقل المتآمرين ضد الدولة العباسية[٢] خلال حكم البويهيين فى القرن الرابع الهجرى[٣] ، أى فى نفس الفترة التى زاد فيها اقبال الترك على الإسلام .

الهجرات التركية إلى الأناضول :

حدثت هجرات تركية إلى الأناضول قبل قيام دولة السلاجقة فى إيران والعراق ، بيد أن هذه الهجرات لم تكن منظمة فأخذت تنتظم تحت رعاية الحكام السلاجقة ووفق ما يرسمونه من تخطيط لها فزادت كثافة هذه الهجرات سعيا وراء هدفين :

أولهما : اقتصادى ، نتيجة لازدياد عدد القبائل المهاجرة من تركستان الشرقية إلى خراسان وما وراء النهر وضيق المكان بها ومن ثم القحط فى الموارد .

ثانيهما : جهادى لتكون بمثابة حزام أمن تستطيع من خلاله أن تواصل غزواتها ضد الدولة البيزنطية التى تاخمت دولة السلاجقة حدودها الشرقية[٤].

انثالت موجات الهجرة التركية بشكل مكثف بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملازكرد ٤١٤ هـ (١٠٧١ م) ، والتى كان . لها أبعد الأثر فى تتريك الاناضول وأسلمته ، فقد استطاع المسلمون بعدها أن يقيموا دولا فى مختلف أرجاء الاناضول وأهمها دولة سلاجقة الاناضول (الروم) ، ومنذ ذلك الحين

أصبح الاناضول ملاذا للقبائل الفارة أمام الاجتياح المغولى القادم من الشرق إبان القرن السابع الهجرى ، ونتيجة لهذا الفرار الجماعى زادت كثافة العنصر التركى المسلم فى الاناضول ، وزاد عدد الدويلات الإسلامية به . ومن الجديد بالذكر أن هذه القبائل كانت تضم عناصر إما حديثة العهد بالإسلام أو لم تعتنق الإسلام بعد .

ولا شك أن وقوع الاناضول تحت نير الاحتلال المغولى وعدم الاستقرار السياسى والاجتماعى كان لهما أبعد الأثر فى الحياة الفكرية والدينية لهذه القبائل .

انتقـال البدع والفرق الضالة إلى الأناضول :

كانت خراسان – المفعمة بالتراث الدينى الايرانى – تموج بالطرق المبتدعة والطوائف المنحرفة فضلاً عن غلاة الشيعة وتسرب عدد ليس قليل من هذه البدع إلى ما وراء النهر حيث تعيش القبائل التركية حديثة العهد بالإسلام فلم يكد يبدأ القرن الرابع الهجرى حتى ظهر فى فرغانة وبخارى من أطلقوا على أنفسهم الباب أو بابا ، وتزعموا الفرق الضالة التى تستهدف التحلل من شروط العقيدة وقيود العبادات(٥) .

ولا يتسع هذا الحيز الضيق للحديث تفصيلا عن المبتدعين فى الدين والفرق بين فرقهم أو الفرق بينهم والشيعة ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى نقطتين أساسيتين :

أولاهما : أن العناصر التركية حديثة العهد بالإسلام آنذاك وقعت تحت تأثير البدع الايرانية فكانت هذه البدع من بين مميزات التراث الذى حملته معها عند هجرتها إلى الاناضول .

ثانيهما : أن الأناضول بما كان فيه من تراث مسيحى رهبانى ، وبما كان يموج به من أحداث سياسية وتطورات اجتماعية كان بيئة صالحة لأن تورق شجرة البدع وتزدهر(٦) إذ أن هذه الأحداث كانت كفيلة بإشاعة جو من القلق وعدم الاستقرار مما جعل الدهماء يلوذون بالتكايا والزوايا ويصدقون كل زعيم بأن الخلاص فى يده ، خاصة بعد فقدان الثقة فى الزعامات السياسية .

وشائـج بين غلاة التصوف والتشيع :

ولئن اختلفت الطرق الصوفية المتطرفة مع غلاة الشيعة فى بعض الجوانب فهى تتفق معها فى بعض المبادىء الأساسية من أهمها :

١ – الابتداع فى الدين .
٢ – فى مبدأ الولاية برمته وفى اشتماله على نمط خفى من العلم والتعلم .
٣ – إعتماد مبدأ التاويل فى فهم القرآن الكريم وتدبر معانيه .
٤ – الاعتقاد بتعدد مراتب المعانى فى الوحى .

ومبدأ الولاية يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة (الإمام) فى المذهب الشيعى ، لأن الإمام هو الذى يتولى المهمة والسلطة التى تخوله إياها الولاية ، ودور الإمام فى التشيع دور رئيسى ومهمته تشبه مهمة (الشيخ الصوفى) شبها شديدا ... فإذا تركنا جانبا مهام الإمام فان ولايته ودوره كمرشد روحى يشبهان مهمة الشيخ الصوفى فى ولايته وإرشاده شبها تاما ، وكما أن الشيخ فى الصوفية على اتصال دائم بقطب زمانه كذلك الإمام فى التشيع فإن جميع المهام الروحية تتصل به داخليا فى كل زمان – ... وهذا ما أكده سيد حيدر الآملى بوضوح فى قوله : « إن القطب والإمام تعبيران يحملان مدلولاً واحدا ويشيران إلى شخص واحد »[٧] ولاشك أن هذا التماثل فى المبادىء الأساسية جعل دعاة الشيعة يَجدّون فى جذب المتصوفة فكانوا يتسترون بالزهد ويظهرون بمظهر الصوفى الغارق فى تأملاته[٨] .

انتشـار التشيع فى الأناضول قبل ظهور العثمانيين :

لا غرو بعد ذلك أن نرى التشيع وقد شاع فى الأناضول رغم حرص حكام السلاجقة وعلماء الشريعة على مقاومته ، إذ كان من اليسير على غلاة المتصوفة أن يتحولوا إبان القرنين التاسع والعاشر الهجريين إلى الشيعة .

وإذا تتبعنا أهم المسالك والدروب التى نفذ منها التشيع إلى الأناضول لوجدنا أنها تتمثل فى الآتى :

١ – الطرق الصوفية المنحرفة : كالبابائية والبكتاشية والقلندرية والكبروية التى أعلنت عن تشيعها رسمياً .

٢ – الوضع السياسى لحكام الدولة السلجوقية فى الأناضول كمعارضين لأبناء عمومتهم فى إيران والعراق مما حدا بكثير من الشيعة والحشاشين أن يرحلوا إلى الأناضول .

٣ – تقرب المغول أثناء احتلالهم الأناضول إلى الشيعة باعتبارهم العنصر المعارض للحكام السلاجقة ، حتى لقد أعلن تيمورتاش الحاكم المغولى نفسه مهديا[٩] .

نخلص من كل ذلك إلى أن ظاهرة التشيع إنما هى دخيلة على الأناضول ، وقد تسربت مبادىء التشيع فى وقت مبكر قبل قيام الدولة العثمانية ، ولكن الشيعة لم يعلنوا عن أنفسهم رسميا آنذاك بل كانوا فى طور التشرنق ، ينتظرون الفرصة المواتية للإعلان عن أنفسهم .

الباطنية والبابائية :

كثر أتباع الباطنية والبابائية فى الأناضول إبان القرنين السادس والسابع الهجريين ، خاصة فى شرق الأناضول ووسطه ، حيث تقطن القبائل التركمانية فى المناطق الجبلية الوعرة البعيدة عن النفوذ السياسى والدينى للحكومة السلجوقية ، وفى حديث المفكر التركى كوبريلى زاده محم فؤاد (١٣٠٨ – ١٣٨٦ هـ) ما يوضح لنا أسباب تمرد هذه القبائل ويعرفنا بملامح حياتها الدينية :

« إن إسلام هؤلاء التركمان لم يكن سنيا خالصا كإسلام أتراك المدن ولكنه كان ملفقا من التقاليد الوثنية التركية القديمة ومن عقائد غلاة الشيعة ... وكان مشايخ هؤلاء التركمان وباباواتهم – كما كانوا يلقبون – يتعرضون بسبب قيافتهم العجيبة وعاداتهم المنافية للشرع ، وحياتهم المنحلة التى تذكر بشامانات الترك القدماء – لحملات شديدة من الصوفيين السنيين ، ولكنهم كانوا مع هذا هم المنظمين والمسيطرين على الحياة الروحية فى القرن وبين العشائر ويرجع أصل هذه الحركات إلى الطرق القلندرية واليسوية لما فى الأولى من غرابة وبدع وشيعية »[١٠] .

زادت الهوة اتساعا بين هذه العشائر وكافة المسلمين وساعد على اتساعها التقاء أهداف الصليبيين والأرمن والمغول فى بث الفرقة بين المسلمين حتى يتسنى طردهم من الأناضول ، وأى فرقة أشد من أن يتشرذم المسلمون إلى فرق وشيع يغتال بعضهم بعضا » إذ كانت حصن كيفا وآمد وماردين معقلاً من معاقل الخوارج الذين ظلت بقاياهم أثناء حكم الأراتقة[١١] وخاصة فى المناطق الجبلية ، وكانت ماردين وديار بكر وبلاد الأرمن الواقعة بين حدود تركيا وروسيا الحالية من معاقل اليزيدية أو عبدة الشيطان[١٢] ونتيجة لذلك كاد المسلمون فى الأناضول أن يلقوا نفس مصير المسلمين فى الأندلس ؛ فبينما كانوا يخوضون حربا ضد الفناء على يد الصليبيين كان أتباع هذه الفرق من جانب والباطنية من جانب آخر يقيمون المذابح الجماعية للمسلمين السنة باتفاق مع الأرمن[١٣] .

أما أخطر تلك الفتن قاطبة ، فتلك التى عرفت باسم البابائية . وقد أطلت برأسها فى أخريات حكم السلاجقة ، بزعامة من يدعى بابا إسحق ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ هـ) ، وواضح من لقبه أنه كان من زعماء الصوفية المنحرفة من التركمان[١٤] وقد ادعى النبوة وأطلق على نفسه « بابا رسول الله » وكانت انطلاقته من إقليم كفرسود فى جبال طوروس وبدأ يدعو لنفسه فى جنوبى طوروس الشرقية وآماسيا وفى كل النواحى المحيطة بهما[١٥] وكان أتباعه يرتدون القلانس الحمراء (كما فعل القزلباشية فيما بعد)[١٦] وأردية سوداء[١٧] .

انتهز بابا إسحق فرصة انشغال السلطان السلجوقى كيخسرو الثانى (٦٣٤ - ٦٤٤ هـ) بقتال الصليبيين « فأمر أتباعه وكانوا كثيرين بين التركمان فثاروا فى مناطق كفرسود ومرعش ، وكان هؤلاء الأتباع مهيئين قبل صدور أمره بالثورة لأنهم كانوا يعلمون أنه سيعلن الجهاد - على حد قوله - فى يوم ما ، وانقضت جموعهم على المدن والقرى ومعهم النساء والأطفال وقطعان الماشية يحدوهم الطمع فى الغنائم والرغبة فى الجنة - كما أوهمهم بابا إسحق ، وبددوا شمل الجيوش السلجوقية التى خرجت للقائهم واستطاعوا أن يسيطرو على مناطق ملطية وطوقات وآماسيا ... واخيراً استطاع السلطان السلجوقى أن يقمع هذا العصيان قمعاً دامياً »[١٨] .

بيد أن إخماد فتنة المدعو بابا إسحق لا يعنى القضاء على البابائية كتيار اجتماعى وسياسى هدام ، بل استمر نشاط الباباوات خفية ؛ يعاود الظهور كلما سنحت الفرصة بذلك ، ولم تنفك فتنهم تطل برأسها على فترات متباعدة طوال الحكم العثمانى : تارة باسم الطورلاق وأخرى باسم الصماونالى وثالثة باسم القلندرية .

ولئن اختلفت أسماؤها أو أشكالها فالغاية عند مثيريها واحدة؛ ألا وهى هدم النظام الاجتماعى والسياسى القائم على مبادىء الشرع الحنيف والتحلل من مبادئه .

نخلص من هذا العرض إلى النتائج التالية :

١ – جاءت البدع والفرق الضالة إلى الأناضول بمجيء القبائل المهاجرة من خراسان وما وراء النهر .

٢ – وجدت هذه البدع رواجاً بين عشائر التركمان فى شرق وجنوبى الأناضول لأسباب تراثية وبيئية .

٣ – من خلالها تسربت مبادىء الشيعة .

٤ – اتفقت أهداف هذه الفرق والشيعة عند هدم النظام الاجتماعى والسياسى للمسلمين .

هوامش الفصل الأول

(١) Togan, Zeki velidi, Umumi Türk Tarihne Giris, Istanbul, 1981, 3.bs., s. 33

لمزيد من التفاصيل انظر :

احمد كتابجى ، فضائل الترك فى أدب الجاحظ ، بيروت ، ١٣٧٩ .

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، الحداث ٤٣٨ هـ

(٢) على الشابى ، الشيعة فى إيران ، تونس ، ١٤٠٠ هـ ، ص ١٣٨ .

(٣) عبد النعيم حسنين ، السلاجقة فى إيران والعراق ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٣ .

(٤) يتضح ذلك فيما نقلناه عن ابن الاثير :

« فى هذه السنة (٤٤٠ هـ) غزا إبراهيم اينال الروم فظفر بهم وغنم وكان سبب ذلك أن خلقا كثيرا من الز بما وراء النهر قدموا عليه ، فقال لهم : بلادى تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتجون إليه والرأى عندى أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا فى سبيل الله وتغنموا وأنا سائر على إثركم» (الكامل ، نفس الجزء ، ص ٥٤٧) .

(٥) Köprülüzade, M. Fuat, Türk Edebiyatinda Ilk Mutasaviflar, Ankara, 1976, 3.bs., s.18

(٦) منذ القرن السابع الهجرى والحروب لا تنقطع فهى تارة بين السلاجقة والبيزنطيين وأخرى بين السلاجقة وابناء عمومتهم أو اخوتهم واخيرا بينهم والمغول .

(٧) السيد حسين نصر ، الصوفية بين الامس واليوم ، تعرف كمال خليل اليازجى عن على الشابى ، سبق ذكره ، ص ١٧٩ .

(٨) يحيى بن حمزة العلوى ، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام ، تحقيق فيصل بدير عون وآخرون ، الاسكندرية ، ١٩٧١ ، ص ١٠ .

(٩) باختصار عن : Hizmetli, Sabri, Osmanlilardan önce Anadoluda Siilik Problemi, I.I.E.D. S.5 - Ankara 1982

(١٠) محمد فؤاد كوبريلى زاده ، قيام الدولة العثمانية ، تعرف أحمد السعيد سليمان القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ١٧٠ — ١٧١ .

(١١) بنو ارتق : حكموا فى ديار بكر وحصن كيفا وآمد وماردين وخرتبرت . لمزيد من التفاصيل انظر :

أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص ٣٥٠ .

(١٢) Turan, Osman, Dogu Anadolu Türk Devletleri Tarihim Istanbul, 1973, s. 225-226

(١٣) Osman Turan, a.g.e., s. 76

(١٤) من مظاهر الاثر الشيعى فى الطرق الصوفية فى الاناضول اطلاق هذا اللقب على زعماء الشيعة فى حراسان فى القرن السابع الهجرى وعرف من بينهم بابا الياس (Hizmetli, Sabri, a.g.e.)

(١٥) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البابائية .

(١٦) القزلباشية اى ذوى القلانس الحمراء وقد اطلق هذا اللقب على شيعة الاناضول وبعض مناطق ايران .

(١٧) دائرة المعارف الإسلامية ، نفس المادة .

(١٨) محمد فؤاد كوبريلى زاده ، المرجع السابق ، ص ٨٢ – ٨٣ .

الفصل الثانى

قيام الدولة العثمانية وجهادها الإسلامى فى الأناضول

انفرط عقد دولة السلاجقة فى الأناضول على يد المغول فى أواخر القرن السابع الهجرى واقتسم حكام الأقاليم وأمراء الحدود أراضيها ، وكان عثمان الأول رئيسا لإحدى العشائر التركية القاطنة على الحدود الغربية لدولة السلاجقة ، ثم تبوا منصب أمير حدود فى عهد السلطان كيخسرو الثالث (٦٦٣ – ٦٨٢ هـ) .

ولا يتسع المجال لذكر تفاصيل الخطوات التى مرت بها هذه العشيرة لتصبح إمارة حدودية لدولة السلاجقة ، ولا لذكر الآراء المتباينة حول نسبها إلى بطون الأوغوز وحول تاريخ نزوحها إلى الأناضول، ولكن يمكن القول بأن ثمة عوامل أسرعت بنمو هذه الأمارة ، لتتبوأ مكان الصدارة من جيرانها وتصبح دولة فى مطلع القرن الثامن الهجرى ، ولعل أهم هذه العوامل :

١ – غلبة العنصر التركى المسلم فى منطقة متاخمة للحدود البيزنطية .
٢ – ضعف الإمارات التركية الأخرى وتناحرها[١] .
٣ – ضعف دولة بيزنطة وانشغالها فى حروب مستمرة مع الدول البلقانية .
٤ – انقسام العالم الإسلامى إلى دويلات صغيرة متناحرة كانت أقواها دولة المماليك فى مصر والشام .

٥ – أما أهم العوامل قاطبة فقد كان حرص الحكام العثمانيين على بناء دولتهم على أسس إسلامية من البداية وكانت أهم مظاهر هذا الحرص :

(١) وصية الأمير عثمان – وهو على فراش الموت لابنه أورخان (٧٢٦ – ٧٦١ هـ) قائلاً : « عليك يابنى بالإلتزام بالشرع الشريف والتشاور مع أربابه فى كل ما أنت مقدم عليه ، وعليك بإكرام الناس وتقديرهم حق قدرهم وتوقير العلماء منهم ، فخير الناس أنفعهم للناس ، وعليك بتعظيم أمر الله والرحمة بخلقه والجهاد فى سبيله وإعلاء كلمته »[٢] .

(٢) حين استقل أورخان بدولته وضرب سكتها فى ٧٢٧ هـ حرص على أن تكون هذه السكة إعلانا رسمياً عن إسلامية الدولة ، إذ كتب على أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تحيط بها أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة وعلى الوجه الآخر اسم اورخان .

(٣) حرص اورخان على أن يكون جيشه أداة حرب وحكم معا ، فعين القضاة والمفتين وكانوا يسيرون فى ركابه ويستفتيهم فى كل أمر ويقضون بين الناس فى كل مصر يحلون به وقد ظل منصب « قاضى عسكر » من المناصب المرموقة طوال الحكم العثمانى . كذلك المفتى الذى كان يُستفتى فى كل خطوة تخطوها الدولة .

(٤) تطبيق المفهوم الإسلامى للدولة من حيث عدم الفصل بين الدين والدولة ، فلم يلجأ الحكام إلى تجزئة الشريعة أو الفصل بين الحق والحقيقة بل كفلوا للإنسان حريته المسئول عنها أمام الله وكانت طاعة أولى واجبة ما داموا ملتزمين بأحكام الله[٤] .

(٥) التخلق بالأخلاق الإسلامية ، فكان لسياستهم العادلة وتسامحهم الدينى أبعد الأثر فى إقبال الأعداء من النصارى على الدخول فى الإسلام ومن ثم الخدمة فى الجيوش العثمانية ويكفى هنا أن نستانس برأى المستشرق الإنجليزى جيبونز (Gibbons) الذى قال فى عثمان :

« سرعان ما كان أعداؤه يتحولون إلى أصدقاء ، يخدمونه ويستمرئون خدمته ، فقد اعتنق آل ميخائيل وآل ماركوزو الإسلام بعد طول صداقتهم مع

عثمان فأصبحوا يأتمرون بأمر قادته وهم أصحاب الأمجاد العسكرية التى تفوق ما لعثمان نفسه ، لقد كان الرجل غيوراً على دينه بقدر ما كان متسامحا »[٥] .

قامت الدولة العثمانية فى دار حرب ، وتمرس أهلوها على غزو الأراضى البيزنطية ولذا لم يكن بمستغرب أن تستظل دولتهم راية الجهاد ، فوضعوا نصب أعينهم التوسع على حساب الأراضى البيزنطية وليس على حساب جيرانهم من الإمارات التركية الأخرى رغم ضعفها .

فتح مدينة بورصة عام ٧٢٦ هـ :

حين شرع العثمانيون يفتحون أراضى بيزنطية كان جزء منها يقع فى قارة آسيا بينما يقع الآخر فى أوروبا وكانت العاصمة القسطنطينية تتوسط الجزأين ، أما مدينة بورصة فقد كانت أهم مدن الجانب الآسيوى إن لم تكن أهم مدن الأناضول قاطبة ، لموقعها الجغرافى وأهميتها التجارية .

ولم يكن فتحها بالأمر اليسير فرغم استيلاء العثمانيين على القلاع المحيطة بها استمر حصارهم لها ثمانى سنوات ، وقد جنى العثمانيون ثمرة تسامحهم الدينى حين أفشل ميخال محاولة الاغتيال التى كان قد دبرها الإمبراطور ضد الأمير عثمان ، وحين سلم أفرنبوز مفاتيح قلعته المشرفة على مدينة بورصة إلى أورخان وأعلن الرجل إسلامه وأصبح أحفاده فيما بعد من أشد المناصرين للإسلام فى أوروبا[٦] عندئذ سقطت المدينة فى يد اورخان (٧٢٦ هـ/ ١٣٢٦ م) . وبمقتضى إتفاق التسليم سمح اورخان لأهل المدينة أن يغادرها بأمتعتهم وأموالهم . وكان حرص العثمانيين على تطبيق هذه المبادىء الإسلامية السمحاء سبباً فى إقبال سكان كثير من المدن البيزنطية على أورخان يعلنون إسلامهم وولاءهم مثلما فعل أهل إزنيق عام ٧٣١ هـ وأزميت عام ٧٣٨ هـ .

وفى ختام حديثنا عن نشأة هذه الدولة الإسلامية نود الإشارة إلى أن العثمانيين حين شرعوا ينظمون أمور إدارتهم لم تكن جعبتهم خاوية من الأسس الحضارية اللازمة لذلك ، فلهم من النظم الإدارية إرث عريض تمتد جذوره إلى سلاجقة إيران والعراق والعباسيين أى أن هذه النظم كانت إسلامية الأصول ،

رغم القليل الذى أخذوه عن بيزنطة .

وهكذا لم يكد ينتصف القرن الثامن الهجرى حتى كانت قد أرسيت دعائم دولة شسلامية فتية ، قيض لها أن تتسلم لواء الجهاد الإسلامى فى الأناضول فكان جهادها امتدادا لجهاد المسلمين فى صدر الإسلام والعهد الأموى فالعباسى – على يد الحمدانيين – فسلاجقة الروم ، لكن جهاد العثمانيين لم يقف عند حدود الأناضول بل تعداه إلى البلقان .